

الشيخ السعدي واستنباطاته في سورة يوسف

From the developments of Sheikh Saadi in his interpretation

"Surat Yusuf model"

الباحثة: مجادة كريمة / كلية العلوم الإسلامية / جامعة الحاج لخضر / باتنة 1

karima.master.05@hotmail.fr

ملخص:

يتناول هذا البحث أحد كتب تفسير القرآن الكريم وهو تفسير الشيخ السعدي - رحمه الله - الموسوم بـ "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، والذي نال شهرة واسعة حتى عند تلاميذ الطور الثانوي، وهذا راجع لطريقة تفسيره للآيات واستنباطاته لمختلف الأحكام والفوائد التي تحملها كل آية من آيات القرآن الكريم؛ وكانت سورة يوسف كنموذج لبيان طريقة استنباط الشيخ في تفسيره.

كلمات مفتاحية: التفسير، الاستنباط، تفسير السعدي، سورة يوسف.

Abstract

This study deals with one of the books of the interpretation of the Holy Quran, which is the interpretation of Sheikh Saadi, may God have mercy on him, which is referred to as "Tayseer Al-Rahman Al-Rahman in the interpretation of the words of manna", which gained widespread fame even in secondary students. A verse from the Quran; Surat Yusuf was a model to illustrate the way in which the Shaykh devised his interpretation.

Keywords: interpretation, interpretation, interpretation of Saadi, Surat Yusuf.

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على خير المرسلين المبلّغ عن رب العالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وبعد:

القرآن الكريم كتاب الله القويم، وهو الصراط المستقيم الذي أرسل لأجله خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه للبشرية لتتعلمه وتحتدي بهديه، وتنضبط بضوابطه وتطبق كل ما جاء فيه من أوامر ونواهي، وذلك للفوز بالدارين. وكتاب كهذا من شأنه لا بد أن يكون مفهوماً بكل مفرداته وجمله ومعانيه، ولأجل ذلك اجتهدت مجموعة من العلماء عبر مختلف العصور والأزمان لخدمة كتاب الله تعالى تلاوة وحفظاً وفهماً وتفسيراً؛ ومن بين هؤلاء المفسرين نذكر الشيخ المفسر السعدي - رحمة الله - في تفسيره "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان".

و تتأسس إشكالية هذا البحث في طرح تساؤلات، من خلالها نقف على كثير من المضامين التي يستدعيها البحث، من هو صاحب تفسير "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"؟ وما تميّز هذا النوع من كتب التفسير؟ ما الفرق بين التفسير والاستنباط؟ وما هي أنواع الاستنباطات التي استخرجها الشيخ السعدي في تفسيره سورة يوسف عليه السلام.

وحتى تعطي هذه الدراسة نظرة علمية متكاملة عن الشيخ السعدي وطريقة تفسيره للآيات واستنباطه لمختلف الأحكام والفوائد التي تتحملها كل آية من آيات القرآن

الكريم. فقد تم تقسيمها منهجياً إلى ثلاثة مباحث، لخصت في الأول منها مجمل حياته، نشأته طلبه للعلم، والمبحث الثاني خصصته للكلام عن تفسيره، أما المبحث الثالث فقد أفردته لبيان معنى الاستنباط وضرب أمثلة عن استنباطات الشيخ السعدي في تفسيره لسورة يوسف عليه السلام .

المبحث الأول: التعريف بالسعدي - رحمه الله تعالى -

المطلب الأول: اسمه ونسبه ومولده

هو العلامة الورع الزاهد تذكرة السلف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي الناصري التميمي الحنبلي، ولد في مدينة عنيزة¹ بالقصيم سنة ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة (1307هـ)، وتوفيت أمه وله أربع سنين ثم توفي والده وهو في الثانية عشرة من عمره، فعطفت عليه زوجة والده وصارت تشفق عليه أشد من شفقتها على أولادها، فنشأ الشيخ نشأة حسنة فدخل مدرسة تحفيظ القرآن فحفظه عن ظهر قلب وهو في الرابعة عشرة من عمره²

المطلب الثاني: طلبه للعلم و شيوخه

بعد حفظه القرآن اشتغل بطلب العلم، فقرأ على إبراهيم بن حمد بن جاسر في الحديث وكان المؤلف يصف شيخه بحفظه للحديث، ويتحدث عن ورعه ومحبهته للفقراء ومواساتهم.

ومن مشايخ المؤلف الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل قرأ عليه الفقه وعلوم العربية وغيرها ومنهم الشيخ صالح بن عثمان القاضي (قاضي عنيزة) قرأ عليه في التوحيد والتفسير والفقه وأصوله والنحو وهو أكثر من قرأ عليه حيث لازمه ملازمة تامة حتى توفي

رحمه الله. ومنهم الشيخ عبد الله بن عائض ومنهم الشيخ صعب القويجيري ومنهم الشيخ علي السناني، ومنهم الشيخ علي الناصر أبو وادي قرأ عليه في الحديث، و أخذ عنه الأمهات الست وأجازه في ذلك، ومنهم الشيخ محمد بن الشيخ عبد العزيز محمد المانع؛ ومن مشائخه الشيخ محمد الشنقيطي (نزىل الحجاز قديما ثم بلدة الزبير) لما قدم عينزة وجلس فيها للتدريس قرأ عليه في التفسير والحديث ومصطلح الحديث وعلوم العربية كالنحو والصرف ونحوهما³.

المطلب الثالث: أعماله وثناء العلماء عليه و تلاميذه

أ/ أعماله:

1- جلوسه للتدريس: صرف الشيخ أوقاته كلها للتعليم والتوجيه والإرشاد، فلا يصرفه عن حلق الذكر ومجالس الدرس صارف، ولا يرده عنها راد، إلا ما يتخلله من الفترات الضرورية.

فاجتمع إليه الطلبة وأقبلوا عليه واستفادوا منه، كما قدم عليه الطلاب من البلاد المجاورة لبلده لما اشتهر به من سعة العلم وحسن الإفادة وكريم الخلق ولطف العشرة.

2- التأليف والتصنيف: فلما بلغ أشده ونضج علمه، ورسخت قدمه، شرع في التأليف، ففسر القرآن الكريم، وبيّن أصول التفسير، وشرح جوامع الكلام النبوي، ووضح أنواع التوحيد وأقسامه، وهذب مسائل الفقه وجمع أشتها، ورد على الملاحدة والزنادقة والمخالفين، وبيّن محاسن الإسلام، كل ذلك في كتب ورسائل طبعت ووزعت.

3- الإمامة والإفتاء: كما نفع الله به الخاصة والعامة، فإنه صار مرجع بلاده وعمدتهم في جميع أحوالهم وشؤونهم، فهو مدرس الطلاب، وواعظ العامة، وإمام الجامع وخطيبه، ومفتي البلاد، وكاتب الوثائق ومحرم الأوقاف والوصايا. وعاهد الأنكحة، ومستشارهم في كل ما يهمهم.

أما بالنسبة لتوليه القضاء فقد رشح لقضاء عنيزة عام 1360هـ، لكنه امتنع منه تورعاً⁴.

ب/ ثناء العلماء عليه:

لقد أشاد كثير من العلماء بفضل الشيخ ابن سعدي، وعلمه، وحسن خلقه، وطيب معشره، وحبه للخير، بل كان محل إعجابهم وثنائهم، فوصفوه بحميد الأفعال، ونعته بطيب الخصال.

وفيما يلي ذكر جملة من أقوال العلماء فيه:

قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز: " كان رحمه الله كثير الفقه والعناية بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل، ... وكان يرجح ما قام عليه الدليل، وكان قليل الكلام إلا فيما تترتب عليه فائدة، جالسته غير مرة في مكة والرياض، وكان كلامه قليلاً إلا في مسائل العلم. و كان متواضعاً حسن الخلق، ومن قرأ كتبه عرف فضله وعلمه وعنايته بالدليل فرحمه الله رحمة واسعة"⁵.

وقال عنه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله - : "... وقد التقيته في دمشق قبل أكثر من أربعين سنة، وأنست منه علماً جماً، ورأيت فيه تواضع العلماء وهو في هذا كسائر العلماء نجد، يذكروننا بأخلاق العلماء المتقدمين وتواضعهم، وليس كغيرهم ممن جعلهم علمهم مغرورين متكبرين..."⁶

وقال عنه الشيخ عبد الرزاق عفيفي - رحمه الله تعالى -: "... فإن من قرأ مصنفاته وتبعت مؤلفاته، وخالطه وسبر حاله أيام حياته، عرف منه الدأب في خدمة العلم اطلاعاً وتعليماً، ووقف منه على حسن السيرة وسماحة الخلق، واستقامة الحال، وإنصاف إخوانه وطلابه من نفسه، وطلب السلامة فيما يجر إلى شر، أو يفضي إلى نزاع أو شقاق، فرحمه الله رحمة واسعة..."⁷.

وقال عنه فضيلة الشيخ محمد حامد الفقي - رحمه الله -: " ... لقد عرفت الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنة، فعرفت فيه العالم السلفي المدقق المحقق الذي يبحث عن الدليل الصادق، وينقب عن البرهان الوثيق، فيمشي وراءه لا يلوي على شيء...⁸."

ت/تلامذته:

أخذ عنه العلم خلق كثير نذكر أشهرهم ما يلي:

- 1_ الشيخ سليمان بن إبراهيم البسام درس في المعهد العلمي.
 - 2_ الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع تولى القضاء في الجمعة ثم في عنيزة.
 - 3_ الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام عضو هيئة التمييز بالمنطقة الغربية.
 - 4_ محمد بن منصور الزامل درس بمعهد عنيزة العلمي.
 - 5_ علي بن محمد الزامل مدرس في معهد عنيزة وهو أضحى أهل نجد في زمنه.
 - 6_ محمد بن صالح آل عثيمين مدرس بالمعهد وخليفة شيخه على إمامة الجامع بعنيزة.
 - 7_ الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل عضو الإفتاء ورئيس الهيئة العلمية المستقلة بعد وفاة سماحة رئيس القضاة.
 - 8_ الشيخ عبد الله محمد العوهلي مدرس بالمعهد العلمي بمكة المكرمة.
 - 9_ عبد الله بن حسن آل بريكان مدرس بالمعهد العلمي بعنيزة.
- وله - رحمه الله - تلاميذ غير هؤلاء وهم كثيرون.⁹

المطلب الرابع: مؤلفاته ووفاته

- مؤلفاته: ألف مؤلفات كثيرة نافعة نذكر منها ما يأتي:

- 1_ تفسير القرآن الكريم المسمى "تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن" في ثمانية مجلدات وقد فرغ من إكمال تأليفه عام 1344هـ طبع بالمطبعة السلفية بمصر.

- 2_ حاشية على الفقه استدراكا على جميع الكتب المتداولة والمؤلفة في المذهب الحنبلي .
- 3_ إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب مرتبة على طريقة السؤال والجواب، طبع بمطبعة الترقى في دمشق عام 1365 هـ على نفقة المؤلف ووزعه مجاناً.
- 4_ تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله .
- 5_ الدررة المختصرة في محاسن الإسلام . طبع في مطبعة أنصار السنة عام 1366 هـ .
- 6_ الخطب العصرية القيّمة، لما آل إليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر في المواضيع المهمة التي يحتاج الناس إليها، ثم جمعها وطبعها مع الدررة المختصرة في مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجاناً.
- 7_ القواعد الحسان لتفسير القرآن، طبعها في مطبعة أنصار السنة عام 1366 هـ ووزعها مجاناً.
- 8_ الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين، وهو توضيح لنونية الإمام ابن القيم رحمه الله .
- 9_ توضيح الكافية الشافية . وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم .
- 10_ وجوب التعاون بين المسلمين و موضوع الجهاد الديني، وهذه الثلاثة الأخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزعها مجاناً.
- 11_ القول السديد في مقاصد التوحيد، طبع في مصر " بمطبعة الامام" على نفقة عبد المحسن أبا بطين عام 1367 هـ .
- 12_ منهج السالكين مختصر في أصول الفقه .
- 13_ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن . طبع على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين، وزع مجاناً، طبع بمطبعة الامام .

14_ الرياض الناضرة، وهو طبع بمطبعة الامام (الطبعة الأولى).

وله فوائد منثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب. وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً.¹⁰

وهذه المؤلفات مع ما فيها من الفوائد والجمع والجددة في الأسلوب والعرض، إلا أنه ينقصها التحرير في بعض المواضع، ولعل هذا يرجع إلى أنه كان يكتبها من حفظه، ثم لا يعود إليها بالتنقيح.¹¹

- وفاته:

أصيب عام 1371هـ بمرض ضغط الدم وضيق الشرايين وكانت أعراضه تبدو بعض الساعات في الكلام فيقف ولو كان يقرأ القرآن، ثم يتكلم ويرجع كعادته فسافر إلى لبنان عام 1372 هـ على نفقة الحكومة السعودية، وبقي في لبنان شهراً يعالج، وبعد أن رجع إلى مدينة عنيزة باشر أعماله التي كان يباشرها قبل مرضه من تدريس وإفتاء وتصنيف وخطابة جمعة وإمامة. فعاوده المرض فلما كان في شهر جمادى الآخرة سنة 1376هـ أحس بالذي فيه وكان معه مثل البرد والقشعريرة وفي ليلة الأربعاء 22 من الشهر المذكور بعد فراغه من الدرس والذي كان يقوم بإلقائه على الجماعة في المسجد، أحس بثقل وضعف في الحركة فأشار إلى أحد تلامذته أن يمسكه ويذهب معه إلى البيت ففعل وهرع معه أناس من الحاضرين فلم يصل إلى البيت إلا وقد أغمي عليه، ثم أفاق بعد ذلك فحمد الله وأثنى عليه، وتكلم مع أهله والحاضرين بكلام حسن طيب، ثم عاوده الإغماء فلم يتكلم بعد ذلك.¹²

فلَمَّا أصبحوا صباح الأربعاء دعوا الطبيب فقرر أن معه نزيفاً في المخ وان لم يتدارك فوراً فإنه يموت فأسرعوا لابنه وللملك فيصل - لما كان ولياً للعهد - فاصدر أمره عاجلاً بكل ما يلزم فقامت الطائرة فوراً وفيها مهرة من الأطباء والعلاجات إلى مدينة عنيزة ولكن الجو كان ملبداً بالغيوم والرعد والبرق والعواصف الشديدة، فلم تستطع الطائرة الهبوط على أرض المطار فتوفي - رحمه الله - قبل فجر يوم الخميس الموافق 22 جمادى الآخرة سنة 1376هـ، عن تسع وستين سنة. فأصيب الناس لموته فانهمرت الدموع ووجفت القلوب وصلى عليه الناس بعد صلاة ظهر يوم الخميس في حشد عظيم لم يشهد في عنيزة له¹³ فرحمه الله برحمته الواسعة.

المبحث الثاني: التعريف بالتفسير

المطلب الأول: اسم الكتاب ونسبه إلى مؤلفه

لقد سَمَّى الشيخ كتابه بـ: "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المَنَّان"، هو كتاب تفسير وسط اهتم مؤلفه ببيان معاني القرآن للاهتداء بها والسير على منهاجها، دون أن يشتغل بحلِّ الألفاظ وفنون النحو والشعر، قدَّم لكتابه بمقدمة ذكر فيها أنَّ القرآن يهدي إلى دار السلام، ويكشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام، وأن الله تعالى قد بينَّ آياته أكمل تبين، وأنه سبحانه أنزله بهذا اللسان لنعقله ونفهمه وأمرنا بتدبره وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير.¹⁴

المطلب الثاني: سبب تأليفه

لقد ذكر الشيخ الدافع لتأليفه هذا الكتاب فقال: "وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مُطوّلٍ خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقتصر يقتصر على حلِّ بعض الألفاظ اللغوية لقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله،

ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها، فمن وفق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه، وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه وما تدلُّ عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بدَّل وسعه في ذلك، فالربُّ أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه".¹⁵

ثم بيَّن خطته فيه فقال: "ولما منَّ الباري عليَّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة بنا، أحببت أن أرسم من تفسير كتاب ما يسر وما منَّ به الله علينا، ليكون تذكراً للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعرفة للسالكين، ولأقيدته خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكونه المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حلِّ الألفاظ والعقود للمعنى الذي ذكرت،...".¹⁶

المطلب الثالث: طريقة السعدي في تفسيره

قد نبه رحمه الله في مقدمة تفسيره بقوله: "أعلم أن طريقي في هذا التفسير أي أذكر عند كل آية ما يحضرنى من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضيع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضيع اللاحقة، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه مثاني تنخى فيه الأخبار والقصص والأحكام وجميع المواضيع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها".¹⁷

لقد التزم الشيخ السعدي بالمنهج الذي رسمه في مقدمة تفسيره ويمكن أن نوضح من خلال ما يلي:

- سهولة ألفاظه وخلوه من التكلف والحشو، وذلك لأنه يقتصر فيه على توضيح الآيات وبيان معانيها.

- عنايته فيه بأمر العقيدة وشرحها وتوضيحها والرد على من خالفها من طوائف الضلال، فعند تفسيره للآيات يُبين ما فيها من دلالات على مسائل العقيدة المختلفة، ويُبين ما فيها من ردود على شبه المخالفين، كل ذلك بأسلوب سهل واضح.

- لا يتعرض للمسائل الخلافية عند تفسيره لآيات الأحكام، وإنما يذكر القول الراجح بدليله.

- بعد تفسيره للآيات المشتملة على قصة نبي من الأنبياء، فإنه يذكر بعدها ما اشتملت عليه القصة من فوائد.

- لا يلتفت في تفسيره للإسرائيليات بل يعرض عنها، ويكثر من التحذير منها.

- عقد في مقدمة تفسيره فصلاً متعدد ذكر فيها جملة من الفوائد المتعلقة بتفسير القرآن اختار جملة منها من كتاب بدائع الفوائد لابن القيم.

- ذكر في آخر المجلد الخامس جملة من الأصول والكلليات المتعلقة بتفسير القرآن، والتي لا يمكن أن يستغني عنها مفسر القرآن الكريم.

- وعقد أيضاً في آخر المجلد الخامس فصلاً شرح فيه أسماء الله الحسنى.

وكان رحمه الله أول ما نشر من هذا التفسير الجزء المتعلق بتفسير سورة الكهف إلى

آخر سورة النمل، ثم بعد ذلك اتبعه بنشر التفسير كاملاً، وكان فراغه من تأليف هذا التفسير في 7 شعبان 1354هـ.¹⁸

المبحث الثالث: استنباطات الشيخ السعدي

المطلب الأول: مفهوم الاستنباط والفرق بينه وبين التفسير

أولاً- مفهوم الاستنباط

أ- الاستنباط في اللغة:

النَّبْطُ: الماء الذي يَنْبُطُ من قَعْرِ البئرِ إذا حُفِرَتْ، وقد نَبَطَ ماؤها يَنْبِطُ نَبْطاً ونبوطاً، وقد أَنْبَطْنَا الماءَ، أي: استنبطناه، يعني: انتهينا إليه. والنَّبْطُ: ما يُتَحَلَّبُ من الجَبَلِ كأنه عَرَقٌ يَخْرُجُ من أَعْرَاضِ الصَّخْرِ.¹⁹ والاسْتِنْبَاطُ: الاستخراج²⁰ و يَسْتَنْبِطُونَهُ فِي اللُّغَةِ يَسْتَنْخِرُونَهُ، وَأَصْلُهُ مِنَ النَّبْطِ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْرِ أَوَّلَ مَا تُحْفَرُ. اسْتَنْبَطَ: الْفَقِيهُ، أَيَّ اسْتَخْرَجَ الْفِقْهَ.²¹

والذي نخلص إليه من كتب المعاجم اللغوية أن الاستنباط هو الاستخراج باتفاق أهل اللغة.

ب - الاستنباط في الاصطلاح:

وقفت على عدد من التعريفات للاستنباط، نذكر بعضها منها ما يلي:

- من ذلك: استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن، وقوة القرينة.²²
- من ذلك: أن الاستنباط أقرب إلى باطن الكلام منه إلى ظاهره، وأقرب إلى المعاني منه إلى الألفاظ. أمّا الاستنباط في استعمال المفسرين فهو: استخراج ما وراء ظواهر معاني الألفاظ من الآيات القرآنية.

المراد بظاهر معاني الألفاظ: ما يتوقف فهم القرآن عليها من المعاني المباشرة.²³

- ومنها: استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح.²⁴

- نستنتج من التعريفات السابقة أن الاستنباط هو استخراج الحكيم والفوائد الباطنة، من آيات القرآن الكريم ولا يقوم بها إلا كل من توفرت فيه الشروط اللازمة، وهذا لا يتأتى إلا للمفسر فما الفرق بين التفسير والاستنباط.

مما لا شك فيه أن هناك صلة وثيقة بين الاستنباط والتفسير لكونها من علوم القرآن والتي تخدمه، فلا يمكن أن يستنبط من الآية شيء إلا بعد فهم معناها، ومع ذلك فليس معنى ذلك أنهما شيء واحد ويتضح ذلك فيما يلي:

1. الفرق بينهما في المعنى اللغوي: فبينما نجد أن معنى الاستنباط الاستخراج بعد الحفاء من ناحية المعنى اللغوي، نجد التفسير: في الأصل هو الكشف، والإظهار،²⁵ وهو بيان وتفصيل للكتاب.²⁶

2. الفرق في المعنى الاصطلاحي: فبينما كان معنى الاستنباط استخراج الأحكام الخفية، والفوائد العلمية من النصوص الشرعية اعتماداً على القرينة الذهنية²⁷ نجد أن التفسير في الاصطلاح: توضيح معنى الآية، وشأنها، وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه، بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة.²⁸ فهو: "علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكّيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصّها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها".²⁹ أي بيان معاني القرآن الكريم.³⁰

3. أن مرجع التفسير هو اللغة وكلام السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، أما الاستنباط فمرجه تدبر الآيات وتأملها بناء على القرينة الذهنية، وأيضاً على ما اعتمد عليه التفسير.

4. أن التفسير مختص بمعرفة المعاني، أما الاستنباط فهو مختص باستخراج ما وراءها من فوائد وأحكام خفية.³¹

5. أن في التفسير جانبين: جانب العقل والاجتهاد، وجانب النقل والرواية، أما الاستنباط فالأصل أنه صادر عن العقل والاجتهاد، ومع ذلك فليس الاستنباط

بمعزل عن النقل والرواية، فالاستنباط مرحلة متأخرة عن التفسير، فالتفسير أولاً، ثم الاستنباط ثانياً.

6. أن التفسير استقر وانتهى، أما الاستنباط فمستمر لا ينتهي، فكتاب الله لا تنتهي عجائبه.³²

المطلب الثاني: منهج الشيخ السعدي في الاستنباط

حوى كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان الكثير من الاستنباطات في جميع سور القرآن الكريم ولما كان موضوع بحثنا عن بعض استنباطات الشيخ السعدي في سورة يوسف كنموذج، فقد توضح من خلال قراءتنا لتفسير آياتها أنها حوت عدة فوائد ومسائل نذكرها على النحو التالي:

أ/ الاستنباطات العقديّة:

في هذه السورة ذكر الله تعالى أنه يقصص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة.

- قال تعالى: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجَزِّي الْمُحْسِنِينَ" (سورة يوسف: 22) قال الشيخ السعدي: "وَلَمَّا بَلَغَ": أي كمال قوته المعنوية والحسية، وصلاح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة، من النبوة والرسالة، وجعلناه نبيا رسولا، وعالما ربانياً... ودل هذا على أن يوسف في مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة".³³
- يوسف عليه السلام هو نبي الله بعثه الله لخلقهم، لدعوتهم إلى توحيدهم وعبادته، وقد بدأ بصاحبيه في السجن قال تعالى: "قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا" (سورة يوسف: 36) قال الشيخ السعدي:

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوها إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه ليكون أنجع لدعوته وأقبل لهما. قال تعالى: "وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِثْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ" (سورة يوسف: 38) قال الشيخ السعدي: " ثم فسر تلك الملة بقوله: " مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ " بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة،.. حيث منَّ عليَّ بترك الشرك واتباع ملة آبائي، فهذا وصلت إلى ما رأيتما، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت".

● وقد دعاها إلى توحيد الله وافراده بالعبادة وحده لا شريك له، قال الشيخ السعدي: "... صرح لهما بالدعوة، فقال: " يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ" (سورة يوسف: 39) أي أرباب عاجزة ضعيفة، لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة، ما بين أشجار وأحجار، وملائكة، وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون،... الله الواحد الذي له صفات الكمال، الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك، القهار الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن...."³⁴.

ومنه يمكن القول أن السورة تحدثت عن التوحيد وبيّنت معناه وأقسامه الثلاثة من خلال قصة يوسف عليه السلام مع صاحبيه في السجن.

● وفي باب النبوات، فيها دليل صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال الشيخ السعدي: "فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين، ولا دارس أحداً. يراه قومه بين أظهرهم صباحا ومساءً، وهو أمي لا يخط ولا

يقرأ. و موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم
بمكرون".³⁵

ب/الاستنباطات الفقهية والأصولية:

يُقصد بها سرد الفوائد واللطائف التي بُنيت على أصل فقهي، وما يتعلق بالآية من
الأحكام الشرعية والفوائد الفقهية المستخرجة من سورة يوسف وهي كالتالي:

- مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته: "أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ" (سورة يوسف: 59).
- جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، و أن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد. وإنما الممنوع التحيل على إسقاط واجب أو فعل محرم.
- أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس، لقوله تعالى: " وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا " (سورة يوسف: 81).
- أن استعمال الأسباب الواقية من العين أو غيرها غير ممنوع بل جائز، أو مستحب بحسب حاله. وإن كانت جميع الأمور بقضاء الله وقدره، لكن الأسباب الواقية أو الدامغة من قضاء الله وقدره، بشرط أن يفعلها العبد وهو معتمد على مسيئتها؛ لأن يعقوب عليه السلام حين أراد أن يوصي بنيه لما أرسل بنيامين معهم، قال وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ"³⁶ (سورة يوسف: 67).

● جواز استعمال الحيل والمكائد التي يُتوصل بها إلى حقٍّ من الحقوق الواجبة والمستحبة أو الجائزة: كما استعمل يوسف ذلك مع أخيه، حيث وضع السقاية في رحل أخيه، ثمَّ أذن مؤدِّن بعد رحيلهم "أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ" إلى قوله: " فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ " (سورة يوسف: 76). فعمل مع أخيه هذا العمل ليتوصَّل به إلى بقائه عنده من غير شعور. فلمَّا تقرَّر عندهم أنَّه هو الذي أخذ الصُّواع استفتاهم عن حكم السَّارق في دينهم فقالوا: "جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ" (سورة يوسف: 75). أي جزاء السَّارق أن يتملَّكه المسروق منه؛ فحكموا على أنفسهم هذا الحكم الذي هو المقصود ليوسف. ولو أجرى عليه حكم ملك مصر لكان له حكم آخر.

فالخيل التي على هذا النوع لا حرج فيها، وإنما الحَرَّمُ الحَيْلُ والمكائد التي يُتوصَّل بها إلى إحلال المحرَّمات أو إسقاط الواجبات.

● أن العقود بما يدل عليها من قول وفعل، لا فرق بين عقود التبرعات وعقود المعارضات؛ لأن يوسف عليه السلام ملَّك إخوته بضاعتهم التي اشتروا بها ميرتهم من حيث لا يشعرون، ولَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، وَذَلِكَ مِنْ دُونِ إِجْبَابٍ وَقَبُولِ قَوْلِي؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ وَالرَّضَى يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ³⁷.

ج/ الاستنباطات السلوكية التربوية:

وهي تلك التي تتعلق بمكارم الأخلاق وفيها تقويم للسلوك، فالقرآن الكريم كتاب هداية إلا للموفق،³⁸ نذكر بعضاً منها على النحو التالي:

● أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرتة، لقول يعقوب ليوسف: " لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا " (سورة يوسف:

(5). و منها أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: "فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا".

- أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به، من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملهم وحصل لهم ما حصل له سببه، كما قال يعقوب في تفسيره: "وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ" (سورة يوسف: 6). ولما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض، والسرور والغبطة، ما حصل بسبب يوسف.
- أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية. لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها- فر هارباً يطلب الباب ليتخلص من شرها.
- ما من الله به على يوسف عليه السلام من العلم، والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله، وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين، عفواً بادرهم به، وتم ذلك بأن لا يثرب عليهم، ولا يعيرهم به. ثم بره العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.³⁹

وغيرها من الفوائد التي ذكرها الشيخ السعدي في تفسيره فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك. فنسأله تعالى، علماً نافعاً وعملاً متقبلاً، إنه جواد كريم.⁴⁰

خاتمة:

كان هذا الموضوع دراسة لجانب من جوانب الحياة العلمية للشيخ عبد الرحمن بن ناصر وأهم ما خلصت إليه:

- أن السعدي هو من مدينة عنيزة، من بني تميم ويعرف اختصاراً ابن سعدي كان يتيماً ولكنه نشأ على حب العلم ورغبته الشديدة في التعلم.
- تفسير الشيخ السعدي هو تفسير تربوي عصري.
- يعد تفسير السعدي المسمّى بـ: "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" من أفضل كتب التفسير لتميّزه بالسهولة، وتجنبه الحشو والتطويل، ودقة الاستنباط مما ييسر اقتناءه وقراءته للجميع.
- هناك صلة وثيقة بين التفسير والاستنباط.
- اهتم الشيخ السعدي بالاستنباط ويظهر ذلك جلياً في تأليفه كتب خاصة بالاستنباط، وفي إكثاره من الاستنباطات في تفسيره.
- تنوعت الاستنباطات في تفسير السعدي فلم تكن واحدة بل كانت متنوعة منها الاستنباطات العقديّة، الفقهية، والاستنباطات التربوية والسلوكية وغيرها.
- ركز الشيخ السعدي في تفسيره لسورة يوسف - عليه السلام - على سرد الفوائد واللطائف بمختلف أنواعها - حسب ما تضمنته قصة يوسف - سواء كانت عقدية أو فقهية أو تربوية، وذلك حتى يستفيد كل قارئ ومتدبّر لكلام الله تعالى.
- الهوامش:**

1 - معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية

للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان، ط3: 1409 هـ - 1988 م، ج1، ص: 279.

2 - ينظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب، دار اليمامة للبحث والترجمة

والنشر الرياض، ط1: 1392 هـ - 1972 م، ص: 256.

- 3 - ينظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم، مرجع سابق، ص: 256، المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مركز صالح بن صالح الثقباني بعنيزة، المملكة العربية السعودية، 1407هـ - 1987م، ص: 5. 6.
- 4 - ينظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1: 1398هـ، ج3، ص: 221 222.
- 5 - الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد، مكتبة الرشد، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1: 1411هـ - 1990م، ص: 65.
- 6 - تراجم لتسعة من الأعلام، محمد بن إبراهيم الحمد، 1472هـ، ص: 229.
- 7 - المرجع نفسه، ص: 230.
- 8 - تراجم لتسعة من الأعلام، مرجع سابق، ص: 230.
- 9 - ينظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم، مرجع سابق، ص: 257 258.
- 10 - مشاهير علماء نجد وغيرهم، مرجع سابق، ص: 258 259، المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مرجع سابق، ص: 8-9.
- 11 - ينظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون، مرجع سابق، ج3، ص: 225.
- 12 - ينظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم، مرجع سابق، ص: 260.
- 13 - المصدر نفسه، ص: 260، 261، الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، مرجع سابق، ص: 23 25.
- 14 - ينظر: القول المختصر في مناهج المفسرين، أبي عبد الله محمد الحمود النجدي، مكتبة دار الإمام الذهبي للنشر والتوزيع، الكويت، ط1: 1412هـ، ص: 77.
- 15 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن ناصر السعدي، تحقيق: محمد الصالح العثيمين، دار الغد الجديد، المنصورة - مصر، 1416هـ، ص: 6. 7، القول المختصر، مرجع سابق، ص: 78.
- 16 - المرجع نفسه، ص: 7.

- 17 - المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مرجع سابق، ص: 10.
- 18 - الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، مرجع سابق، ص: 54-55.
- 19 - العين ، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج7، ص: 439.
- 20 - الصحاح تاج اللغة وصحاح اللغة العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان، ج3، ص: 1162.
- 21 - تاج العروس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، دار الهداية، ج20، ص: 133، 134.
- 22 - التعريفات، علي بن محمد الزين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1: 1403هـ - 1983م، ص: 22.
- 23 - معالم الاستنباط في التفسير، نايف بن سعيد الزهراني، المملكة العربية السعودية، ص: 21.
- 24 - منهج الاستنباط من القرآن الكريم، فهد بن مبارك بن عبد الله الوهي، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، جدة - السعودية، ط1: 1428هـ - 2007م، ص: 44.
- 25 - ينظر: الاستنباطات عند العلامة محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير جمعاً ودراسة، أيمن بن غازي بن حسين صابر، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1435هـ - 2014م، ص: 124.
- 26 - العين، مرجع سابق، ج7، ص: 247.
- 27 - ينظر: الاستنباطات عند العلامة محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير جمعاً ودراسة، مرجع سابق، ص: 124.
- 28 - التعريفات، مرجع سابق، ص: 63.
- 29 - الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ص: 849.

- 30 - شرح أصول في التفسير، محمد بن صالح بن عثيمين، تحقيق: أشرف علي خلف، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندرية - مصر، ص: 95.
- 31- ينظر: منهج الاستنباط من القرآن الكريم، مرجع سابق، ص: 58.
- 32- ينظر: منهج الاستنباط من القرآن الكريم، مرجع سابق، ص: 59.
- 33 - ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص: 386، 388.
- 34 - المصدر نفسه، ص: 391.
- 35- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص: 402.
- 36 - فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، أضواء السلف، الرياض - السعودية، ط 1: 1420 هـ - 2000م، ص: 35.
- 37- المصدر نفسه، ص: 36، 37، 53.
- 38- الاستنباط عند الإمام ابن عطية الأندلسي، مرجع سابق، ص: 92.
- 39 - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص: 402، 403.
- 40 - المصدر نفسه، ص: 406.